

القسم الثاني

obeikandi.com

الفتح العربي الإسلامي

من عمر بن الخطاب إلى السلطان سليم

٢٥ - العرب في فلسطين قبل الإسلام

إن كل من شغل بعلم التاريخ يتجاذبه عاملان قويان. أولهما عام وهو حب العلم وثانيهما خاص وهو رغبة الاطلاع على تاريخ قومه وبلاده. فالقسم الأول من هذا الموجز يهتم العربي الذي طمع في العلم ورغب فيه. أما القسم الثاني فمن الواجب المتحتم على كل عربي أن يمزجه بدمه ونفسه لارتباط تاريخ بلاده بأمته الذي ينعش نفسه ويحييها، فإني أعجب كيف يكون المرء وطنياً إذا لم يعرف تاريخ بلاده وسيرة أمته وأبطالها أو لم يتعلم لغتها وآدابها؟ فتصديرنا هذا الموجز بتاريخ الأمم الأخرى ليس لأنها أقدم من أمتنا العربية في سواحل فلسطين الشرقية والجنوبية. بل لكونها ملأت صحف تاريخ البلاد أكثر من سواها فالعرب منذ القدم سكنوا فلسطين وكانت فيها مراتبهم ومصايفهم وشيدت فيها منازلهم وحكوماتهم وهذه نبذة مختصرة عن العرب قبل الإسلام في فلسطين تؤيد بها حجتنا:

١ - ورد في التواريخ الموثوق بها أن نرام سين بن سرجون ملك الكلدان غزا فلسطين سنة ٣٨٠٠ ق م. وصادف في سينا حكومة عربية. ثم حارب قبيلة «معان» العربية وأسر أميرها وقد ظهر في آثار بابل ما يثبت هذا القول.

٢ - أن سرجون الثاني غزا عرب البادية الذين تعدوا على بلاد السامرة وأخضع قبائلهم ومنها ثمود وهم مديان «مدين» ومساكنهم شرقي الأردن وحارب عبايد وأخذ منهم طائفة وأسكنها في بلاد السامرة.

٣ - فى القرن الثامن ق.م. أخضع تغلث فلصر عرب البادية بين فلسطين ومصر وكانت ملكتهم حببية فعزلها وولى مكانها أحد رؤسائهم.

٤ - لما جاء الإسكندر إلى فلسطين وحاصر غزة كانت حاميتها عربياً فقاومته أشد المقاومة.

٥ - بشر أحد تلامذة المسيح بلغات عديدة منها اللغة العربية كما ورد فى أعمال الرسل ص ٢ : ١١.

٦ - كان الحارث حاكم دمشق عربياً لما دخلها بولس الرسول كما ورد فى رسالته إلى أهل مدينة كورنثوس (كونثوس ص ١١ : ٣٢).

٧ - لما جاء تيطس لفتح القدس كان معه الحارث ملك العرب يقود فرقة عربية.

٨ - التجأ مركانوس المكابى إلى الحارث ملك العرب فأنجده وساعده على أخيه ارستوبولس.

٩ - إن فيليس الرومانى الذى صار إمبراطوراً فى رومية سنة ٢٤٤ب.م. كان عربياً من بصرى حوران (راجع جيون) Every man's Encyclopedia Vol. 10, p 298.

١٠ - حكومة تدمر وتمدنها وتجاريتها ونفوذها فى الشرق والبلاد العربية (راجع زيدان التمدن الإسلامى).

١١ - حكومة بطرا «الحجر» فى الجنوب الشرقى من فلسطين إلى خليج العقبة وقد حكموا فلسطين وسورية.

١٢ - الغساسنة حكام الشام وحوران وشرقى الأردن الذين عمروا المدن وشادوا القصور والقلاع وهى دولة عربية مسيحية.

ومن استقرأ صفحات التواريخ القديمة وجد كلمة «العرب» تجول فى غزواتهم المظفرة ومحارباتهم الكثيرة فى فلسطين وحسبنا دليلاً أن هاشما جد أبى النبى «ﷺ» مات فى غزة ودفن فيها وإننا نعرض عن دول اللخمييين والهيكسوس

وحمورابى واليمن لأنها بعيدة عن بلادنا ولا اتصال لنا بهم. ولكننا نقول: إن سكان فلسطين القدماء كالكنعانيين والعمالقة الذين أتوا فلسطين من جزيرة العرب ربما كانوا من طوائف العرب البائدة طسم وجديس إذ يصعب على الفكر التصديق بانقراض قبائل كبيرة برمتها. ولكن يجوز أن تستحيل إلى غيرها وتندغم فيها. فيظهر مما تقدم أن العرب لم يفيضوا إلى فلسطين دفعة واحدة بل دخلوها تدريجاً ثم تدفقوا فى عهد الفتح الإسلامى وهذا يحملنا على الترجيح أن مجيء كل فرد أو قبيلة عربية إلى هذه البلاد كان توطئة وتمهيداً للفتح الأخير وفى هذه السطور دليل كافٍ على أن العرب سكنوا فلسطين قديماً وشاركوا بها غيرهم قبل الفتح الإسلامى وتمتعوا بها بعده.. والمستقبل يتوقف على نشاط الأمة واستعدادها، يمليه الأفراد على مدونى التاريخ فلنحذر أن يكون شراً.

٢٦ - النهضة الإسلامية

كان العرب قبل الإسلام مختلفى الاعتقادات ومتفرقى النزعات فمنهم الموحد والمشرك والصابئى وعابد الأصنام ولكنهم أجمعوا على احترام مكة المقدسة فكانوا إذا حجوا إليها يطوفون حولها وينزعون سلاحهم فلا يحاربون فيها ولا فى أشهرهم الحرم وقد سموا أيام الحرب التى حدثت فى إحرامهم «الفجار» لأنهم ارتكبوا فيها فجراً. فيظهر أن العرب كانوا وقتئذ فى بدء تطور جديد فنفسهم تتحفز للنهوض وتحركها حروبهم الداخلية وتعديات جيرانهم الفرس والأحباش على اليمن ووقعة ذى قار وانتصار العرب من الفرس كل هذا يدل على تمخض فكرى وغليان عقلى وتأهب للانتقال السياسى والدينى الذى يطرأ على الأمم وتلا ذلك ولادة محمد «ﷺ» فى سنة ٥٧٠ ب.م. فى مكة من قبيلة قريش وهى من أشرف قبائل العرب ولها سدانة الكعبة فيتم صغيرا وكفله جده عبد المطلب ثم عمه أبو طالب فاشتهر بالأمانة والخلق الطيب فسمى بالصادق الأمين فتاجر بأموال السيدة خديجة بين الحجاز والشام على حصة من الربح فأرضاهم بمعاملته وأعجبت به فخطبها وتزوجها وانتفع بمالها.

كان فى نفس محمد أسرار محجوبة تحركها العوامل والبواعث الخارجية فتثيرها ثم تخدم إلى أن بلغ من العمر أربعين سنة وبعثه الله نبياً فبث دعوته ثلاث سنوات بين أهله وعشيرته الأقربين فأسلم له نفر وكان يجتمع بهم خفية فى دار الأرقم المخزومى إلى أن أسلم عمر بن الخطاب فقال لهم «علام نخفى ديننا ونحن على الحق وهم على الباطل» فأجابه النبى ﷺ «إنا قليل وقد رأيت ما لقينا فقال له عمر: والذى بعثك بالحق لا يبقى مجلس جلست فيه بالكفر إلا جلست فيه بالإيمان فخرج النبى فى صفين من المسلمين حتى دخلوا المسجد فلقبه النبى ﷺ «الفاروق لأنه فرق بين الحق والباطل فنزلت الآية ﴿حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١) فجهر النبى ﷺ بدعوته وطاف على القبائل وهو يتلو عليهم ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(٢) فاضطهدته قريش وطفقوا يكرهون من آمن به على ترك دينهم بدفنهم فى الرمل أحياءً ويسومونهم أنواع العذاب وهم على عقيدتهم ثابتون وإن أعظم شرط لنجاح المبادئ الجديدة وطنية كانت أو دينية الجزم بصحة المذهب والثبات عليه مهما اعتراه من المحن.

ظلت الدعوة الإسلامية ضعيفة حتى آمن بها أخوال النبى ﷺ الأنصار ونصروه عصبية وحباً فى الدين ومزاحمة لقريش علهم يحولون وجهة الحج إلى مدينتهم لأن أحد أبطالهم أبا الهيثم قال يا رسول الله فهل عنيت إن أظهرت الله عز وجل أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فقال له أنتم منى وأنا منكم أسالم من سالمتم وأحارب من حاربتهم. فلما طال بهم العسف هاجروا جميعهم خفية إلى المدينة ليحتموا بالأنصار إلا عمر بن الخطاب فإنه تقلد سيفه وتنكب قوسه وانتضى فى يده أسهماً وطاف بالبيت سبعا وصلى متمكنا وقال :

(١) سورة الأنفال الآية ٦٤.

(٢) سورة النحل الآية ٩٠.

«شامت الوجوه لا يرغم الله إلا هذه المعاطس من أراد أن تثكله أمه ويهتم ولده ويرمل زوجته فليلقني وراء هذا الوادي» فما تبعه أحد ومن ذلك اليوم الموافق سنة ٦٢٢ بدأ تاريخ الهجرة النبوية فنزلت آيات الجهاد وحدثت المناوشات والسرايا والغزوات فجهز النبي ﷺ سنة ٨ هـ جيشاً يبلغ عدده ٣٠٠٠ مقاتل لغزو فلسطين وسورية وأمر عليه مولاة زيد بن حارثة فسار حتى وصل إلى معان فقابلهم الروم بجيش كبير من قبائل العرب المنتصرة لخم وجذام وبلى فتحاربوا فى قرية مشارف ومؤتة^(٥) من البلقاء فانكسر المسلمون وهزموا وقتل بضعة من قوادهم منهم جعفر الطيار جد آل هاشم فى نابلس فلم يئثن عزم النبي ﷺ ولم يصبر على تلك الغلبة فسار إلى مكة وفتحها وأسلمت قريش ووفدت إليه أمراء الجزيرة مسلمين مؤمنين بدينه الجديد فكان يُصحبهم بالقرآن ليفقهوهم فى الدين ويعلموهم الصلاة وقد ساعد على سرعة انتشار الدين الإسلامى نفوذ حكم الأمير فى قبيلته فإنه عند ما كان يسلم الأمير تتبعه القبيلة بلا عناء فعم الإسلام الجزيرة كلها ووجه النبي ﷺ نظره لفتح سورية وفلسطين فجهز جيشاً وقاده بنفسه إلى تبوك فصالحه أهل آيلة وأهل مقتا وأكيدر دومة الجندل على الجزيرة ولم يصطدم بالروم وانقلب راجعاً ثم جهز جيشاً ثالث مرة سنة ١١ هـ وأمر عليه أسامة بن زيد ففاجأته المنية والجيش على تمام الاستعداد.

وان محاولة النبي ﷺ ثلاث مرات فتح فلسطين وسورية لحجة بالغة على تطلعه ورغبته فى ضمها إلى الجزيرة لأنها جناحها وقادمتها العراق.

٢٧ - النبي محمد ﷺ

كان عظيماً فى نفسه أميناً فى دعوتة صادقاً فى نبوته جليلاً فى شريعته مصلحاً بأخلاقه وتعاليمه جمع كلمة العرب وأزال التفرقة من بينهم برابطة جديدة متينة وهى الإسلام الذى لم يكن مقصوراً على كونه ديناً وحسب بل كان

(٥) سميت هذه السرية بسرية مؤتة

رابطة قومية وسياسية واجتماعية، ألفت بينهم وقذف بهم إلى العمور ففتحوه بنوابة روحه وغرس عمله وأنا نورد هنا طائفة من القرآن الكريم والحديث الشريف النفيسة المدبجة بالحكمة والفضائل.

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتَذَلُّوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ ﴾^(١) ﴿ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾^(٢).

﴿ وَالْعَصْرُ ﴾^(٣) ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾^(٤) ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾^(٥) الدين المعاملة. الدين النصيحة.

﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾^(٦)

﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾^(٧)

﴿ وَلَا تَنْزِعُوا عَنْهُمْ لِيُرَوَّاهُمْ وَتَحْبَهُم بَلْ يُرِيبُهُمْ ﴾^(٨)

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾^(٩)

﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴾^(١٠)

﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعُهَا أَذَى ﴾^(١١)

ليس المسلم الذى يشبع ويجوع جاره وقال فى خطبة حجة الوداع: استوصوا بالنساء خيراً [راجع نموذج الفضائل الإسلامية]. ولما قبض النبي ﷺ ارتد

(١) سورة البقرة الآية ١٨٨.

(٢) سورة البقرة الآية ١٩٠.

(٣) سورة العصر.

(٤) سورة الشورى الآية ٤٠.

(٥) سورة آل عمران الآية ١٠٤.

(٦) سورة الأنفال الآية ٤٦.

(٧) سورة البقرة الآية ٢٥٦.

(٨) سورة الكهف الآية ٢٩.

(٩) سورة البقرة الآية ٢٦٣.

العرب ورجعوا إلى دينهم القديم لأنهم أسلموا عصبية وتبعوا أمراءهم قبل أن يرسخ الدين في نفوسهم أو تعرف القبائل ما هو الإسلام فقتلوا المعلمين وطردها المفقهيين وامتنعوا عن أداء الزكاة وادعى كثير منهم النبوة فحاربهم الخليفة أبو بكر حتى ثابوا إلى رشدهم وأذعنوا للإيمان بعد جهاد عنيف.

٢٨ - إنفاذ جيش أسامة

ابتدأ أبو بكر أعماله بأن أنفذ بعث رسول الله ﷺ الذي كان مجهزاً بقيادة أسامة بن زيد وعدده بين ٧٠٠ - ١٠٠٠ وزُوِّدَهُ بوصية جلييلة وهى صفحة نيرة من أخلاق أبى بكر قال: «لا تخونوا ولا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تعقروا نخلاً وتحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا يعيرا إلا لله وسوف تمرن بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له». وقصارى القول أنها خير مثال للوصايا الإنسانية وجديرة بأن تكون قدوة حسنة لقواد جيوش عصرنا المتمدن الذين أمروا بقتل الأطفال وهتك النساء وتخريب البنايات وقطع الأشجار وهدم الكنائس. فسار أسامة بسريته إلى أن وصل أبنى بناحية البلقاء شرقى الأردن وأوقع بقبائل قضاة ورجع بعد أربعين يوماً. فأظهر أبو بكر الحكمة بإنفاذ جيش أسامة وهو بحاجة لجند يخمد بهم ثورة الردة ليوهم العرب الذين مر بهم الجيش أن للمسلمين قوة عظيمة لا طاقة لهم بها. وقد خسر العرب فى تحقيق الأهداف المطلوبة فى هذه الغزوات الثلاث ولكن لم تثبط همتهم وكروا بجيش لا بشرذمة طالبين الفتح لا الغارة قاصدين الاستيطان لا الاصطياف.

٢٩ - وقعة اليرموك

صعب على أبى بكر ظفر الروم بالمسلمين فاستنصر العرب واستجاشهم ووجه خالد بن سعيد بن العاص إلى تيماء فذهب وصدمه الروم بجموع كثيرة أكثرها من العرب المنتصرة بهراء وتنوخ ولخم وسليم وجذام وغسان ونزلوا من دون زيزاء بثلاث مراحل فلما قدم خالد أعروا منازلهم وحطوا بين «فجّل» وزيزاء

والقسطل^(٤) وبعد قتال فل جيش خالد وارتد مخذولاً فعزله الخليفة وولى مكانه يزيد بن أبى سفيان ومعه وجوه مكة وأشرفها وغايته اللقاء وعززه بثلاثة أمراء وهم (١) عمرو بن العاص ووجهه إلى فلسطين فأخذ عن طريق المعرقة إلى أيله «العقبة» (٢) الوليد بن عقبة ووجهته الأردن ثم استبدله بشرحبيل بن حسنة وسلك طريق تيوك (٣) أبو عبيدة بن الجراح وهدفه حمص وطريقه اللقاء وعلياء الشام وأمر يزيد على الجميع وزوده بوصية وهى:

«إنى قد وليتك لأبلوك وأجربك فإن أحسنت رددتك إلى عملك وزدتك وإن أسأت عزلتك.. إذا قدمت على جندك فأحسن صحبتهم وابدأهم بالخير وعدهم إياه وإذا عظمتهم فأوجز فإن كثير الكلام ينسى بعضه بعضاً وأصلح نفسك يصلح لك الناس الخ».

فسار الأمراء وأوغلوا بجيوشهم وتغلغلوا فى أحشاء البلاد فنفرت منهم طوابع الروم ظانين أنها غيمة عما قريب تقشع. فلما رأوهم اقتحموا المدن وجاسوا عوراتها هبوا من غفلتهم وجمعوا جيشاً من العساكر والمقاتلة زهاء ١٥٠ ألف مقاتل. ويقول جيون: إنه كان فى هذا الجيش ٦٠ ألف جندى عربى بقيادة جبلة بن الأيهم آخر ملوك الغساسنة. فناجزوا المسلمين وهم متفرقون ليزعزعوا قوتهم ويبلغوا أربهم لأن وقفة قوادهم كانت شبه مثلث رأسه فى اللقاء مع يزيد «لحفظ خط الرجعة» وطرّاه الواحد فى الجنوب الغربى من فلسطين مع ابن العاص والآخر مع أبى عبيدة فى الجنوب الشرقى من حوران وفى الوسط «الأردن» شرحبيل «خط المواصلات» ففطن المسلمون لمقصد الروم وعرفوا نياتهم فأشار عمرو بن العاص بأن توحد القوى ويتراجعوا إلى أطراف سورية ويستشيروا الخليفة. أما أبو عبيدة فرأى مبادرة الروم ومحاربتهم فخالقوه وأجمعوا على رأى عمرو وعسكروا فى اليرموك^(٥) وأرسلوا إلى أبى بكر فأشار عليهم بالاتحاد ريثما

(٤) قرى صغيرة متهدمة فى شرقى الأردن قرب مادبا

(٥) هو نهر صغير يصب فى الأردن بعد خروجه من بحيرة طبرية وكلمة يرموك معركة عن

اللغة اليونانية «بيرومكس» Hieromax

يأتيهم المدد وأمر خالد بن الوليد قائد جيوش العراق أن يأخذ نصف من معه من الجند وينصرف مسرعاً إلى الشام فامتثل الأمر وسار بقطعة من الجيش فمرّ بتدمر وأغار على جمع من تغلب وكتب وقاتل بنى مشجعة واتى إلى ثنية العقاب. وأغار على غسان يوم عيد فصحهم ثم وفد على المسلمين فى اليرموك فوجد كل أمير يتساند على جنده فقال لهم: إن اليوم يوم من أيام الله لا ينبغي فيه الفخر ولا البغى أخلصوا جهادكم.. وأشار عليهم بأن يتناوبوا الإمارة العامة فقتنوا منه وولوه إياها فعباهم تعيبة فنية «كراديس كراديس». ووضع نفسه فى المقدمة يقودهم إلى الإمام وفى القلب أبا عبيدة وفى الميمنة عمرو بن العاص وشرحبيل وفى الميسرة يزيد بن أبى سفيان والقعقاع بن عمرو. وكان قائد الطلائع قباث بن اشيم والقاصّ أبا سفيان بن حرب يشجع الرجال ويقص عليهم نبأ البطولة والثبات. فلما استعرضوا الروم قال رجل لخالد «ما أكثر الروم وأقل المسلمين!!» فأجابه «ما أكثر المسلمين وأقل الروم إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان» وهناك كان يستعد الجيشان لمعركة فاصلة فإما أن يفوز المسلمون ويسودوا على سورية وفلسطين ومن هناك إلى مصر والمغرب والأندلس أو يردهم الروم على أعقابهم إلى مهدم وباديتهم. فلما اصطدم العسكران أظهر الروم من البسالة والصبر ما كاد يزيل المسلمين عن مواقفهم لولا أن النساء حملن العصى والرماح والعمد وضرين بها وجوه الخيل إذا لوت وحرضنهم قائلات «إلى أين يا حماة الإسلام» فصدوا وقد شد الروم على ميمنتهم فكشفوها وسحقوها ثلاث مرات وهم صابرون وأبو عبيدة يتخطى الصفوف فيشجع الجمع ويضمد جروح الجرحى ويعدهم بالنصر إلى أن فازوا وانسحب الروم من أمامهم معتصمين ببيسان تاركين أسلابهم والغنائم. وقد اختلف المؤرخون فى عدد الجند فقال ابن الأثير إن جنود العرب كانت ٤٦ ألفاً والروم ٢٤٠ ألفاً أى أن الجندى العربى يقابل خمسة من الروم. وقال المطران الدبس فى «موجز تاريخ سورية» إن العرب كانوا ٤٠ ألفاً والروم مئتى ألف ومنهم من بالغ ومنهم من اعتدل والحقيقة أقرب إلى الصحة كلما قل العدد.

كانت هذه المعركة مفتاح النصر ومقدمة للاستيلاء على سورية وفلسطين وبما أن جميع المعارك الحربية التي حدثت بالقرب من هذه البقعة كانت فاصلة فإننا نورد هنا بعضها.

١ - وقائع مجدو: بين مصر والعراق وما كان يلحق فلسطين من عواقبها.

٢ - وقعة اليرموك: التي زال بها ملك الروم عن الشرق.

٣ - معركة حطين: بين طبرية والناصرية وهي المعركة التي قضى بها صلاح الدين على الأفرنج وأخرجهم من فلسطين.

٤ - اصطدام الترك بالماليك في اللجون ورجوعهم القهقري.

٥ - معركة مرج ابن عامر: بين جنين والناصرية التي هزم فيها النبي جنود الألمان والأتراك وأسر منهم خمسين ألفاً.

كانت نتائج هذه الملاحم الكبرى في تلك البقعة قاضية وفاصلة بين المتنازعين فمن فاز ملك البلاد ومن غلب على أمره خسرهما ورجع مخذولاً. ولم يك هرقل متوقعاً هذا الانكسار فلما فل جيشه جزع وانسحب إلى شمال سورية وولى أخاه «ثيودور» القيادة العامة وبعث إليه القواد والعساكر وطلب النجيدات من قومه ليكرّ ثانياً على العرب ويجلبهم عن البلاد. أما العرب فإنهم ولوا بشير ابن كعب الحميري مدخل اليرموك كى لا يقطع عليهم العدو خط المواصلات ونشطوا إلى فتح دمشق وقد فاجأتهم وفاة الخليفة أبي بكر واستخلاف أمير المؤمنين عمر. فحاصروا المدينة سبعين يوماً ودخلها خالد عنوة وأبو عبيدة صلحاً. وقد اختلف المؤرخون في الوقت الذي عزل فيه خالد أكان قبل فتح دمشق أو بعده والأرجح أنه قبله لأن شروط التسليم والمعاهدة ومخاطبة الخليفة كانت كلها باسم أبي عبيدة الذي استخلف على دمشق يزيد بن أبي سفيان وانقلب إلى فحل (آبل) شرقى الأردن لمحاربة رافضة جيش الرومان الذين آووا إلى بيسان فوجد المياه والأحوال والمستنقعات محيطة بالمدينة وقد حجزت المسلمين عن التقدم فكتبوا يستشيرون الخليفة ولا نية لهم بأن يرموا إلى منطقة فحل حتى يأتي جوابه فظن

الروم بهم ضعفاً واغترروهم فوجدوا المسلمين على حذر وقاتلوهم وهزموهم فغاصت أرجلهم في الوحل فأتوا على آخرهم وكان نصراً مبيناً وسمى ذلك اليوم «ذات الردغة» فانصرف أبو عبيدة بخالد ومن معه إلى حمص. فلنتركه وشأنه ولنذكر ما تم وجرى في فلسطين.

٣٠ - أجنادين^(٥)

محل واقع بين بيت جبرين والرملة كما أجمعت على ذلك كتب التاريخ وياقوت وقد اختلف المؤرخون في وقعة أجنادين، ومن يستقصى التواريخ العربية يشتبه عليه أنه حدث موقعتان متعاقتان والحقيقة أنها موقعة واحدة لأن العرب لما قدموا البلاد كان كل أمير مستقلاً غير مرتبط بالآخر فانسابوا في داخل البلاد فلما نشط الروم لناهضتهم تركوا ما فتحوه وانضموا إلى بعضهم في اليرموك تحت لواء خالد بن الوليد. وبعد انتصارهم ذهبوا إلى دمشق ففتحوها ثم انتشروا ثانية يفتحون ويغنمون فسار عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة إلى بيسان ففتحها صلحاً وفتح أبو الأعور السلمي طبرية سنة ١٤هـ سنة ٦٣٧م على صلح دمشق وأن يشاطروا المسلمين المنازل في المدينة وما أحاط بها مما يصلها لينزل فيها القواد. ثم قصد عمرو أشغال حامية الروم وعساكرهم المرابطة في المدن المسورة خشية اجتماعهم فيؤلفوا قوة كبيرة ورأى أن يناضلهم غير مجتمعين فسرح يزيد بن أبي سفيان أخاه معاوية لحصار قيسارية وانطلق علقمة بن مجرز لحصار غزة وعلقمة ابن حكيم ومسروق بن فلان العكي لقتال إيليا «القدس» وأبو أيوب المالكى إلى الرملة ونهض هو جنوباً فأقام على أجنادين وفتحها سنة ١٥هـ سنة ٦٣٧م. وقتل في هذه الوقعة الأمير عون ابن الملك النعمان بن المنذر جد أسرة أرسلان ثم ساحت القواد في فلسطين ففتحوا غزة واللد وسبسطية وسابلس ويافا وعمواس وبيت جبرين. واستعصت الرملة والقدس وقيسارية وعسقلان فاجتمع معظم

(٥) نزل ما ورد في كتب التاريخ كان سهواً وتحديد المكان كان مغلوطاً وربما كانت اجنادين جنين أو اللجون أو طولكرم على حسب ما ورد في سير الحوادث الدالة على أنها واقعة بعد مرج الروم «ابن عامر» حيث تكثر المياه.

الجيش لحصار القدس وقد بلغ ٣٧ ألف مقاتل وكانت السماء ممطرة فنزل خالد بن الوليد مما يلي باب أريحا وعروة بن مهلهل مما يلي طريق الرملة وواصلوا الحصار أربعة شهور.

٣١ - فتح باب المقدس

عجز الروم وأيقنوا أن دولتهم دالت وأنهم مأخوذون لاسيما والمسلمون يحترمون بيت المقدس ويقدسونها فلا يسمحون بها لغيرهم ففتنواهم وأقروا على التسليم وطلبوا إلى جيش أبي عبيدة أن يصلحهم على صلح أهل مدن الشام وأن يكون المتولى للعقد الخليفة عمر بن الخطاب فكتب إليه بذلك فحضر إلى الجابية وقدم عليه رسل إيليا فتلقاهم المسلمون براية الأمان وصالحوهم على الجزية وأنموهم على القدس وحيزها والرملة وحيزها وهذه شروط المعاهدة التي كتبت في الجابية كما أوردتها الطبري وهي :

بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان :

أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقض منها ولا من حيزها ولا من صلبهم ولا من شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ولا يسكن بإيليا معهم أحد من اليهود. وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم. ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيليا من الجزية. ومن أحب من أهل إيليا أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بيعهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان.. فمن شاء منهم قعد وعليهم مثل ما على أهل إيليا من الجزية ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصدوا حصادهم. وعلى ما في هذا

الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذى عليهم من الجزية كتب سنة ١٥هـ شهد خالد بن الوليد، وعبد الرحمن بن عوف، وعمرو بن العاص، ومعاوية بن أبى سفيان .

أما معاهدة الرملة فهى عين معاهدة بيت المقدس، وقد أورد الأتس الجليل^(١) زيادة على هذه العهد منه :

- ١ - ألا تبني كنائس ولا تتجدد فى خطط المسلمين إذا هدمت.
- ٢ - أن يضيفوا المسلمين ثلاثة أيام بلياليها.
- ٣ - ألا يواروا جاسوساً ولا يكتموا غشاً للمسلمين ولا يمنعوا من أراد الإسلام.
- ٤ - ألا يبيعوا خمراً ولا يضرروا بأحد من المسلمين.. الخ.

فعلل الزيادة التى ضمها الأتس الجليل للمعاهدة المسطورة فى تاريخ الطبرى هى ذبول أضافها عليها الملوك والخلفاء المتأخرون بحسب الظروف وإلا فالطبرى أولى بدرجتها لأن تاريخه مفصل وقد بناه على الإسناد والتحقيق.

وبعد أن أمضى العهدة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب شخص إلى بيت المقدس بثيابه البسيطة وموكبه الديموقراطى لا كما نراه من قواد وملوك القرن العشرين الذين لا يسيرون إلا بالقطارات الخاصة أو «الاتوموبيلات» الفخمة بأبهة عظيمة وحاشية مهيبة فقدم المدينة وخيم خارجها إلى أن سلموها فدخلها وزار كنيسة القيامة فلما أدركته الصلاة خرج منها وصلى أمامها حيث كنيسة سيدتنا مريم فأنشئ هناك جامع ولم يصل فى القيامة خشية أن يدعيها المسلمون ويحولوها إلى مسجد.

ثم طلب إلى البطريك « صفرونيوس » أن يريه مكان هيكل سليمان فذهب وإياه ودله عليه فلما شامده مزبلة قذرة وأطلالاً دثرة دهش وأخذ يحفن التراب وينحضه بكفيه فتبعه من معه حتى تصبب عرقاً وأمر ببناء مسجد فوق الصخرة

(١) لتأليف مجير الدين الحنبلى

فى الحرم الشريف الذى يقده جميع مسلمى الأرض ثم أمر علقمة بن مجرز على نصف فلسطين الجنوبى وقاعدته إيليا وعلقمة بن حكيم على نصفها الآخر وعاصمته الرملة ورجع إلى الحجاز عاصمة الخلافة. وبعد سبع سنين فتح معاوية بن أبى سفيان مدينة قيسارية بوشاية رجل يهودى دل العرب على نفق فدخلوا منه إلى المدينة وفتحوها سنة ٢٣هـ فتحت عسقلان ولم يبق للروم مدينة ولا قرية فزال ملكهم عن فلسطين وأصبحت البلاد عربية فى حكومتها وشعبها.

طاعون عمواس

كانت عمواس قرية يزيد بن أبى سفيان وهى اليوم من ناحية بنى مالك تبعد ١٧ كيلومتراً إلى الشمال الغربى من القدس انتشر منها الطاعون فمات أمين الأمة الإسلامية أبو عبيدة وأتاب مكانه معاذ بن جبل فطعن وكلاهما مقبور فى غورييسان ويجاورهما قبر شرحبيل بن حسنة. وتوفى أيضاً يزيد بن أبى سفيان. ولما عين عمرو بن العاص أميراً عاماً للجند أمرهم أن يتفرقوا ويتوزعوا على رؤوس الجبال متباعدين عن بعضهم فخف الوباء وانقطع المرض.

ويقدر مجموع من توفى بهذا الطاعون خمسة وعشرين ألف نفس وليس هذا العدد بكثير لما شاهدناه فى الحرب العظمى.

وفى سنة ٦٣٨م تم للمسلمين الفتح فقسوا البلاد إلى أربع ولايات «أجناد» فكانت فلسطين قسمين :

- ١ - جند الأردن وعاصمته طبريا وبلادها بيسان وعكا والقولة.
- ٢ - جند فلسطين وحاضرتة الرملة وبلادها القدس وعسقلان وقيساية وأريحا ويافا وعمان.
- ٣ - دمشق وبلادها بيروت وصفد وصيدا.

٤ - الثغور التى فصل العباسيون جزءاً منها سنة ١٧٠هـ وسموه العواصم وحاضرتها حمص وحلب وأنطاكية وطرابلس. أما مدينة القدس فكان لها امتيازات خاصة لما لها من الاحترام الدينى فى نفوس المسلمين وقد التبس على

بعض المؤرخين فظنوها مستقلة عن الرملة والحقيقة أنها كانت تابعة إليها وسنة ٢١هـ تعين معاوية والى دمشق والأردن حاكمًا على البلقاء والأردن وفلسطين والسواحل وانطاكية وكليكية ومعرة النعمان ولما استخلف عثمان أضاف إليه جميع البلاد السورية فانتدب معاوية علقمة بن حكيم الكنانى واليًا لفلسطين وأبا الأعور السلمى للأردن.

٣٢- إدارة البلاد وأسباب نجاح العرب فى فتوحهم

(أ) إدارة البلاد

أبقى العرب البلاد على ما كانت عليه، فظل أكثر السكان يدينون بدينهم متصلين برئيسهم الرومانى فى القسطنطينية كما يرتبط الآن جميع المسلمين بالخليفة العثمانى ويمارسون لغاتهم. فأهل فلسطين كانوا يتكلمون اليونانية وأهل مصر القبطية وأهل العراق الفارسية واتخذتها الحكومة لغات رسمية فى دواوينها إلى أن ولى الخلافة عبد الملك بن مروان فأبطلها وألغها وأستبدلها باللغة العربية وضرب الدينار الإسلامى فأصبحت الحكومة العربية وتتنذ مستقلة استقلالاً اقتصادياً ولغوياً وسياسياً. فتهافت الأعجام على تعلم اللغة العربية ليستفيدوا من حرفة الكتابة لأن لغاتهم أهملت فتعربوا ودخل أكثر العجم فى الدين الإسلامى وتدينوا به فأصبحت البلاد عربية إسلامية محضة يتخللها شذمة قليلة من غير المسلمين.

(ب) أسباب النجاح^(٥)

مما يدعو إلى الإعجاب بهمة العرب وإعظامهم تفوقهم على غيرهم بالرغم من عدم انتظامهم فإنهم تغلبوا على الممالك الراقية ودكوا عروش الحكومات المؤسسة التى كان لها الجند المنظم ولديها الحصون المنيعة وبيدها السلاح والذخائر وقد يعلل كثير من المؤرخين هذا النصر وينسبونه إلى عوامل معقولة وأسباب علمية مهدت لهم السبل لد ظلهم حتى أقصى المعمورة وهذه هى الأسباب:

(٥) راجع زيدان - تاريخ التمدن الإسلامى .

١ - نشاطهم وخفة أثقالهم واكتفاؤهم بالقليل من الحاجيات ووفرة جمالهم ووسائط نقلهم.

٢ - اعتقادهم المتين في نص الآية ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾^(١) ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾^(٢) ومن الأحاديث « الجنة تحت ظلال السيوف»^(٣).

٣ - مهارتهم وفروسياتهم ونجابتهم خيلهم وتفوقهم على عدوهم في المبارزة وإتقانهم رمى النبال.

٤ - عظمة رجال النهضة الإسلامية مثل عمر بن الخطاب وأبى بكر وأبى عبيدة وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص ومعاوية.. الخ.

٥ - الصبر والمطولة وقلة حاجتهم للزاد والعلف الذى كان يبهب عدوهم فيمل القتال قانعا بالسلامة.

٦ - العصبية الجنسية فإن القبائل العربية المسيحية التى كانت خاضعة إلى الحكم الرومانى الأجنبى صافحت إخوانهم العرب وانضمت إليهم وحاربت معهم الرومان وهنا رجحت جامعة اللغة على جامعة الدين.

٧ - المحافظة على خط الرجعة فإنهم كانوا حريصين على خط رجعتهم حتى لا يقطعها العدو وينطوى عليهم فيأخذهم أسرى.

٨ - ظفر المسلمين بالروم فى واقعة اليرموك فإنه أكسبهم قوة معنوية واحتقروا عدوهم فاستصغروا شأنه وطمعوا فيه.

٩ - ظلم الرومان للسكان وفساد الأحكام حتى نقم الأهالى أحكامهم وملوا ولايتهم وتمنوا تبديلها.

(١) سورة المنافقون الآية ١١

(٢) سورة الأعراف الآية ٣٤

(٣) ورد فى سنن الترمذى

١٠ - اليهود فإنهم كانوا آلة نعمة للعرب من الأهالي وأداة انتقام ودليلا للطرق شأنهم مع كل فاتح.

١١ - عدل المسلمين والتسوية بين الناس فلم يكونوا يفرقون بين أمير وحقير ورفيع ووضع « ديمقراطية بحتة » .

١٢ - استبقاء الناس على ما كانوا عليه فلم يتعرضوا لدينهم أو معاملاتهم أو أحكامهم القضائية والعرقية.

١٣ - وفرة الغنائم فقد فاض على المحاربين بحر من ذهب فكانوا يجنون من فتح البلاد غنى عاجلاً وغنائم جاهزة حتى إن كثيراً من العرب المنتصرة اعتنقوا الدين الإسلامي وحاربوا حباً في المال.

١٤ - ضعف الفرس والرومان باختلافاتهم الداخلية وعدم إخلاص القواد للوكهم وأمرائهم والذي يقابل بين فتح سورية ومصر وبين فتح العراق يستغرب كيف خضعت الأوليان واستمعت الثالثة وأتعبت المسلمين فظلت بعد فتحها محافظة على لغتها وعاداتها ولم يمض عليها قرن ونصف حتى استبدلت حكومتها الفارسية الوثنية بحكومات فارسية إسلامية فاصطفت الدين فقط وأنفت أن تتعرب كما فعلت الحكومات الأوروبية فإنها تنصرت مع المحافظة على جنسيتها ولغتها والسبب في ذلك أن دولة الرومان كانت مستعمرة لسورية فلما غلبت انحسرت عن البلاد وظل السكان وأكثرهم العرب فاندغموا في الحكومة الإسلامية والقومية العربية وأصبحوا أمة واحدة. أما العراق فكانت حكومتها فارسية وكان سكانه عجماً فلما سقطت دولتهم ظلوا فرساً فاعتنقوا الدين الإسلامي ولكنهم لم ينسوا استقلالهم فتربصوا حتى سنحت لهم الفرصة فاستعادوا ملكهم وقد حاولوا مرات قلب الحكومة العربية فقتلوا عمر بن الخطاب وتحزبوا لآل البيت وساعدوهم في ثوراتهم ونصروا بني العباس ولا غرض لهم من كل هذا إلا ذلك الدولة العربية واسترجاع دولتهم الفارسية.

٣٢ - الفتح العربي الاسلامى والخلفاء الراشدون

شرعت الحكومة العربية توسع حدودها وأطرافها فتجاوزت سورية ومصر وشواطئ افريقية الشمالية والعراق وإيران والأفغان إلى أن توفي عمر بن الخطاب وانتخب عثمان بن عفان فضعف عن ضبط البلاد لتغير الأحوال وتفرقت النزعات والآراء فهمم بادارة المملكة كما يريد مروان بن الحكم ومعاوية بن ابي سفيان فأخذ برأيهما وولى أهله الأمصار وتعصب لقومه فعزل أهل السابقة فى الاسلام والشهرة فى الفتوح. فاغتنم هذه الهفوة يهود الحجاز الذين دخلوا فى الدين الاسلامى ليفسدوه ويهدموا أركانه فطافوا الأمصار وقدم زعيمهم الأكبر عبد الله بن سبأ «ابن السوداء» الشام ليوغر الصدور مبشراً بكلمات براقية منها: « إن معاوية يقول: المال مال الله إلا أن كل شىء لله يريد أن يحتجنه دون الناس ويمحو اسم المسلمين ويتلو الآية: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(١) وقال أعجب ممن يقول برجعة المسيح ولا يقول برجعة محمد وكيف تعصون آل بيت نبيكم» ووضع أحاديث كثيرة وزور كتباً ورسائل أرسلها إلى البلدان يؤلب على عثمان. فاختمت الثورة ونضجت فى أفكار المسلمين فاشتعلت الفتنة واضطربت فى كل الأقطار خلا سورية لأن معاوية كان ساهراً يقظاً فحرج الثوار من مصر والعراق إلى المدينة ناقمين من أعمال عثمان ومطالبين بالرجوع إلى سيرة العمرين وبعضهم يقول: إن علياً أحق بالخلافة من سواه فانجلت هذه العاصفة عن قتل عثمان واختيار على مكانه وشذ طلحة والزبير وخذعا عائشة أم المؤمنين زوج النبي وخرجوا إلى العراق وخالفوا علياً فحاربهم وظفر بهم «فى وقعة الجمل» فقتل الاثنان وأسرت عائشة^(٢) وأمتنع معاوية بسورية ولم يبايع لعلى وأخذ يتهمه بأنه رأس الضلالة وأنه هو الذى ألب على عثمان وأوى قتلته فاجتمع بنو أمية حوله وعاضده عمرو بن العاص على أن يعطيه مصر طعمة. فغضب على وهب لمقاتلته ومناجزته فالتقوا بصفين سنة ٣٦ هجرية

(١) سورة التوبة الآية ٣٤

(٢) الصحيح أن علياً كرم الله وجهه أعادها معززةً مكرمةً إلى المدينة، فلم تؤسر.

واختلفت بينهم الرسل وتكرر السفراء طمعاً فى الصلح فلم يتوفقوا لخير. وفى سنة ٣٧ هجرية ابتدأت الحرب وقد أظهر جند الأردن شجاعة فائقة. ثم اتفقوا على تحكيم رجلين فصلاً للخلاف ورفقاً بالمسلمين فاختر معاوية عمرو بن العاص داهية العرب ورضى علي بأبى موسى الأشعرى. ولما اجتمع الحكمان وتفاوضا كاد عمرو أبا موسى وقال له لنخلع الرجلين حقناً للدماء ويكون الأمر شورى فخدع أبو موسى وقام خطيباً فخلع الرجلين (عليا ومعاوية) ثم قام عمرو فخلع علياً وأقر معاوية فلم ترض شيعة علي بهذا الحكم وافترقوا مختلفين. ومن هنا بدأ أمر علي يضعف ويضمحل وشأنه يسفل وشأن معاوية يعلو حتى قتله ابن ملجم وباع جنده ولده الحسن ثم انتقضا عليه فاستشار الحسن أخاه الحسين فى التنازل عن الخلافة فنهاه قائلاً « إياك أن تصدق أحداثة معاوية وتكذب أحداثة أبيك » فلم يسمع منه وخلع نفسه بعد ستة شهور من حكمه وباع معاوية وسلم إليه الكوفة عاصمة أبيه فى آخر بيع الأول سنة ٤١ هـ فسمى هذا العام «عام الجماعة» لأنهم أجمعوا به على خليفة واحد ولكن الخوارج كثروا وعصوا على الخليفة فكان كلما قضى على فرقة تنبت أختها وظلت طوائفهم تتعاقب حتى حين. فالطوائف الشيعية والزيدية والدرزية والإسماعيلية والإباضية هى بقية أولئك الخوارج الذين تكونت نواتهم من نقات ابن سبأ والذين حاربوا بنى أمية وبنى العباس وكادوا يهدمون الدين الاسلامى لولا أنه كان فتياً ويقوضون الدولة العربية لولا عصبيتها القومية.

٢٤- نبذة من تاريخ القرآن الكريم:

إن للقرآن أهمية كبرى فى توحيد كلمة العرب وفتوحاتهم العظيمة نذكر منها هنا شيئاً عنه :

نزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مدة ٢٠ سنة فكانوا يكتبونه على الرقاع وعظام الأكتاف وعصب النخل واللخاف أو يستظفرونه ويسمون حفظته الحفاظ. ويقسم القرآن بحسب محل النزول إلى مكى ومدنى. أما باعتبار الناسخ والمنسوخ فله أقسام: قسم ليس فيه لا ناسخ ولا منسوخ وهو ٤٣ سورة الفاتحة، يوسف، يسين .. الخ. وقسم فيه الناسخ فقط وهو ست الفتح،

الحشر، المنافقون، الخ. وقسم فيه منسوخ فقط وقسم فيه ناسخ ومنسوخ وهو ٢٥ سورة البقرة، النور، الخ.

والنسخ على ثلاثة أضرب: أحدها ما نسخت تلاوته وحكمه، الثاني ما نسخ حكمه دون تلاوته، الثالث ما نسخت تلاوته دون حكمه وكل ذلك تم على عهد النبي صلى الله عليه وسلم فلما قبض وارتد العرب وقتل أكثر الحفاظ فى غزوة اليمامة أشار عمر بن الخطاب على أبي بكر بجمعه فتردد ثم جمعه من تلك المخطوطات ومن صدور الرجال. وأبقوه عند أبي بكر حتى مات فأخذه عمر فلما قبض بقى عند ابنته حفصة وفى خلافة عثمان انتشر المسلمون فى كل الأقطار فذهب القراء فى تلاوته مذاهب شتى فشهد حذيفة بن اليمانى اختلافاً بين المسلمين فى قراءة بعض الآيات ورأى بعضهم يفضل قراءة أبى موسى على ابن مسعود فأناب عثمان بذلك وأنذره بسوء العاقبة فبعث إلى حفصة بنت عمر أن أرسلى الصحف لنسخها ونردها إليك فأرسلتها فدعا عثمان أجلة الصحابة وأمرهم أن ينسخوا القرآن ويستعينوا على القراءة بما حفظه القراء وقال لهم أن اختلفتم فى شيء فاكتبوه بلسان قريش ففعلوا^(١) علواً ذلك سنة ٣٠ هـ وكتبوا ستة مصاحف فبعث عثمان بأربعة إلى الأمصار مكة والبصرة والكوفة والشام وأبقى اثنين فى المدينة، والمصاحف التى تتداولها الآن هى فرع عن ذلك.

كتب القرآن بلا شكل ولا إعجام حتى أيام زياد فوضع نقطاً لونها يخالف لون الكلمة (إعجام غير واف) ثم وضع أبو الأسود الدؤلى نقطاً لىتميز بها الاسم والفعل والحرف وربما اقتبس هذا من السريان أو الكلدان. أما صور الحركات التى وصلت إلينا وهى الضمة والفتحة والكسرة فقد وضعها نصر بن عاصم بأمر الحجاج بن يوسف وجعلها أفراداً وأزواجاً. ثم أضيف إليها الحركات المماتة وهى الإمالة (e) والروم (ü) والإشمام (ö) فكانت لها أوضاع خصوصية وزيدت عليها علامات أخرى مقتطعة من كلمات تؤدى المعنى المراد نحو مدّ () شدّ (). ولكن حفىنى بك

(١) ومن هنا تفرعت القراءات الشاذة والصحيحة فأبيدت الفاسدة ولم يبق إلا القراءات السبع وأشهرها قراءة حفص (راجع الاتقان).

ناصر قال في كتابه حياة اللغة العربية : إن الشكل موجود قبل الإسلام وأسند حجته بادلة وبراهين قاطعة.

ومن المسلمين من يعتقد أن القرآن قديم ومنهم من يقول إنه حادث. ومحدث هذه البدعة درهم بن الجعد، أما المأمون فقد امتحن العلماء القائلين بقدمه ونكل بهم المعتصم من بعده.

٣٥ - آثار الخلفاء الراشدين في فلسطين

الأبنية التي على رؤوس الجبال قد حولوها مناظر (مناظر) وجعلوها يشرف الواحد منها على الآخر فإذا داهمهم العدو أنذر بعضهم بعضاً نهاراً بالدخان وليلاً بالنار فينتقل الخبر بسرعة كالتلغراف ويأتيهم المدد. ومن آثارهم تأسيس دور الضيافات وفرض عطاء للمجذومين وبناء الجوامع في القدس ونابلس وبيت لحم وغيرها.

٣٦ - أبطال النهضة الإسلامية

إن جميع النهضة القومية والانقلابات الاجتماعية يتقدمها أعمال تمهيدية تسهل لها النجاح. فالانتباه الفكري والنبوغ الشخصي ركنا النهضة. وقد نبغ في الصدر الإسلامي أساطين عظام كان لهم القدح الملقى في تكوين النهضة الإسلامية والدفاع عنها فجدير بنا أبناء الأمة العربية أن نرفع لهم التماثيل إقراراً بفضلهم واعترافاً بعظمتهم وتنويهاً بأعمالهم لنشفي بهم النفوس المريضة ونداوى الهمم الضعيفة فنقتصر هنا على سير من فتحوا فلسطين وكانوا عاملاً كبيراً في إحياء الأمة العربية فنقول:

١ - عمر بن الخطاب

عمر بن الخطاب من بنى عدى بطن من بطون قريش وكنيته أبو حفص كان تاجراً وله السفارة في الجاهلية فإذا ما اختلفت قريش وقبيلة أخرى انتدبته وحده للمفاوضة ولا حق لسواه أن يشاركه فيها.

كان المسلمون ضعافاً حتى أسلم فاعتز الإسلام به وصحب النبي صلى الله عليه وسلم خير صحبة وكثيراً ما نزل القرآن بما أشار به وشهد غزوات بدر وأحد والخندق وبيعة الرضوان. ولما ولي الخلافة قال: (اللهم إني شديد فلينى وإنى ضعيف فقوتى وإنى بخيل فسخنى إن رأيتم فى اعوجاجاً فقوموه) فأجابه أعرابى قائلاً: لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا. فحمد الله الذى أوجد فى قومه من يقوم اعوجاجه. وهو أول من وضع التاريخ الهجرى وفرض العطاء (رتب الرواتب) ودون الدواوين فأسس نظارة المالية والحربية والإعاشة وقسم البلاد إلى مناطق وعين عليها الأمراء ورتب الغزوات فى الشتاء (الشواتى) وفى الصيف (الصوائف) ورتب البريد مجاًناً وأمر ببناء البصرة والكوفة وتخطيط شوارعها بعرض ٢٠ ذراعاً والأزقة بعرض ٧ أذرع وحجر على المجذومين ومنعهم ملامسة الناس.

وأقام العيون (الاستخبارات) يوافونه بالأخبار وعين قاصاً (مفتشاً) يطوف على الأمورين ويحقق الشكايات سراً وعلناً ويحمل إليه ما وجدته بالتدقيق. وأسس الحسبة (مجلس البلدية) لمشاركة الموازين والمكاييل ومراقبتها ولمنع الغش وتنظيف الأزقة والرفق بالحيوان فيجازى من حملة أكثر مما يطيق ويهدم البناء المحدث فى مجتمع السوق وحظر على الناس الازدحام فى الطرق وأمرهم أن يستروا الكنف وينحوا مئاعبها عن السبل. وكان إذا تكلم أسمع وإذا مشى أسرع وكان ديموقراطياً لا فرق عنده بين الملك والسوقة وحارثة الملك الغسانى جيلة بن الأيهم مع الفزارى مشهورة وقصة عبد الله بن عمرو بن العاص مع القبطى ظهيرة وقوله المأثور (مذكم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهم أحراراً) فكانت إدارته عرفية شديدة عادلة. كبح جماح الغطرة البدوية وبنى عليها التساهل الحضرى.

كان يحب التجارة وحرص قومه على مزاولتها فقال: (لا تلهكم الرياضة وحبها يا معشر قريش لا يغلبنكم الغرباء على التجارة فإنها ثلث الإمارة) وكان إذا رأى فتى نشيطاً سأل عن حرفته فإن قيل لا حرفة له هان عليه وكان يكره الكسول ويكره من يقطف رأسه إلى الأرض وكان يقول للقراء ارفعوا رؤوسكم ولا تكونوا عيالاً على المسلمين كان يكره التنطع فى الدين والولع فى الزهد فأمر

أن يعجل بإفطار رمضان وأن تمشى الناس مشية غيرناكسى رؤوسهم. وكان يقول للحجر الأسود إنى أعلم أنك لا تضر ولا تنفع. ولما أخذ الناس يعظمون الشجرة التى بويح تحتها النبى ﷺ قطعها وفى الحقيقة أنه من أعظم بناءة الإسلام ومكونى الأمة العربية. وفى خلافته فتحت سورية والعراق وإفريقية ثم فجع أبو لؤلؤة العرب بقتله.

٢ - خالد بن الوليد

هو من بنى مخزوم بطن من بطون قريش كان قائد فرسان قريش فى الجاهلية (الأعنة والقبعة) فلما أسلم أنفذه النبى ﷺ مع سرية زيد بن حارثة لغزو الروم فكانت موقعة مؤتة واستشهد فيها القواد إلى أن رفع المسلمون الراية إليه فأخذها وقاتل حتى اندق فى يده بضعة أسياف فسماه النبى سيف الله المسلول ثم اختاره أمير فرسان (سوارى) المسلمين وأبلى فى فتح مكة البلاد الحسن وهدم صنم العزى وهو ينشد:

يا عزّ كفرانك لا سبحانه
إنى رأيت الله قد أهانك

وفى غزوة تبوك بعثه النبى ﷺ إلى اكيدر دومة الجندل فأسره وكان ترساً وسوراً للمسلمين. وبعد أن قبض النبى ﷺ وارثد العرب وجهه أبو بكر لمقاتلتهم فأسلم بنو طيء قبل قدومه خوفاً منه ونهد إلى طليحة الأسدى الذى كان قد ادعى النبوة ففلّ جيشه وهزمه وقصد (أم زمل) فقتلها وتفرق من معها وسار إلى بنى تميم وتخلف عنه الأنصار منتظرين أمر الخليفة فقال لهم خالد (أنا الأمير وإلى تنتهى الأخبار ولو أنه لم يأت إلى كتاب ولا أمر ثم رأيت فرصة فكنت إن عملتُ بها الخليفة فاتثنى لم أعلمه حتى أنتهزها وكذلك لو ابتلينا بأمر ليس فيه منه عهد أشاور قومى ثم أعمل. وها أنا قاصد ولست أكرهكم) فسار ثم لحقوه فقتل مالك بن نويرة أمير بنى يربوع وتزوج امرأته فغضب عمر وطلب من الخليفة أن يقتص منه فأجابته: ارفع لسانك عن خالد فإنى لا أشيم سيفاً سله الله لقد تأول فأخطأ. واستفحل أمر مسيلمة وادعى النبوة ونكب جيش عكرمة وهزم جيش

شرحبيل فرماه أبو بكر بخالد فذهب وقد خاف فرار من معه ففصل الأحياء عن بعضها ليظهر بلاء كل قبيلة على حدة. وبعد حرب شديدة هزمه وقتله ولما أن هدأت الثورة الداخلية أرسله الخليفة إلى أسفل العراق ففتح الأبله ثم الحفير وقصد الحيرة فدفع إليه إياس الطائي ٩٠ ألف درهم جزية.

وقدم إليه الفرس هدايا كبيرة فحسبها من الغنائم وأرسل خمسها إلى أبي بكر. وهزم الفرس على نهر الثني وعند الولجة وعلى نهر الليبس فأتاه «الدهاقين» وصالحوه وسار إلى الأنبار ففتحها وزحف إلى عين التمر وامتلكها. وقد تضايق القائد عياض بن غنم واستصرخه فأجابه: (من خالد إلى عياض إياك أريد) فسار وهزم أمير دومة الجندل وأخذ الحصن وشرع يتم فتح العراق إلى أن بعثه أبو بكر إلى سورية فأخذ معه نصف الجيش ومرّ بتدمر وأتى المسلمين في اليرموك فوحد قواهم وخطب فيهم وعيى الجيش تعبى فنية وبعد قتال عنيف هزم الرومان ولم يبق لهم بعدها قائمة ثم ذهب إلى دمشق وفتحها وبعد أن عزله الخليفة عمر عن الإمارة العامة دخل صفوف المسلمين كجندى وحارب في بيسان ورجع إلى سورية فافتتح البقاع وفتح قيسرين وصالحه أهل حلب وفتح مرعشا وخرب حصنها حتى لا يعتصم به أهلها.

فدهش أمير المؤمنين من أعماله العظيمة وقال: (عجزت النساء أن تلدن مثل خالد لقد أمر نفسه يرحم الله أبا بكر كان أعلم منى بالرجال).

ثم استدعاه إليه وترضاه فعاتبه خالد بكلام قاس فأجابه عمر (ما عزلتك لريبة فيك ولكن اقتنت بك الناس فخفت أن تفتتن بهم) وكتب بذلك إلى الأمصار وهى أعظم شهادة لحفظ كرامة خالد الذى ثل عرش الأكاسرة ودك أرائك القياصرة ولما اثته الوفاة قال عند احتضاره (لقد شهدت مائة زحفة أو زهاءها وما فى بدنى موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة وما أنا أموت على فراشة كما تموت العير فلا قرت أعين الجبناء) وفى الجملة فإنه رجل الإسلام وقامع الردة وبطل اليرموك ولو أردنا استقصاء أخباره لطال بنا البحث فلنترك تحليل هذه الروح العظيمة إلى نباهة القراء واستنتاجاتهم.

٣ - أبو عبيدة

هو عامر بن عبد الله بن الجراح ويتصل في فهر بنسب النبي ﷺ الذي لقبه أمين الأمة وهو أحد العشرة الذين بايعوا النبي وفي وقعة بدر كان أبوه مشركاً فتصدى له وهو يحيد عنه ثم قتله وهذا من أعظم الإيمان وأثبت المبادئ الصادقة والعقائد المتينة التي لا يحول دونها شفقة ولا حنان وقد اختاره الفاروق قائداً عاماً لجيوش سورية فقام بوظيفته خير قيام وكان محترماً في قومه مستشاراً فيهم رفيقاً بضعفائهم معروفاً بالرأى والدعاء. سلمت إليه طائفة من دمشق صلحاً وحاصر فلول اليرموك في بيسان وحاربهم في فحل فأجهز عليهم. وسار إلى حمص ففتحها صلحاً وسلمت إليه معرة النعمان وحماة وامتنع أهل اللاذقية فاحتال عليهم وأمر بحفر سرب في الأرض يستر الفرس والفرس وأظهر لأهل المدينة أنهم انصرفوا ففتحوا الأبواب وخرجوا فلم يرعهم إلا ظهور المسلمين من كل جانب ودخلوها عنوة وفتح أنطاكية مرتين وكانت مشحونة بالمقاتلة ووضع فيها جيشاً يربط الأعداء لوقوعها على الحدود.

ولم تطب نفس هرقل عن الفتح فعاود الكرة وفاجأ العرب بجند كثيف فخطب أبو عبيدة في قومه قائلاً: (أيها الناس هذا يوم له ما بعده أما من حى منك فإنه يصفو له ملكه وأما من مات فله الشهادة ولا تكرهوا الموت. فإنه خير من حيلة المغلوب).

ولما طعن عمر قالوا له استخلف يا أمير المؤمنين فقال: (لو كان أبو عبيدة حياً لاستخلفته وقلت لربي إن سألتني سمعت نبيك يقول إنه أمين هذه الأمة).

وقد توفي في طاعون عمواس ودفن في غور بيسان وله أوقاف كثيرة وبني مشهده الملك الظاهر بيبرس وأوقف عليه بلاداً وأرضاً واسعة.

٤ - عمرو بن العاص

هو من بني سهم بطن من بطون قريش وكان يعير بأمه لأنها سبية ولولا هذا الحيف الذي لحقه لزاحم على الخلافة. كان جزاراً وتاجراً وله مكانة سامية عند قومه لشهرته بالمكيدة واختراع الحيلة وكان يلقب داهية قريش.

تأخر إسلامه ولكن حسنت صحبته وقاد سرية ذات السلاسل وفيها أبو بكر وعمر وكانت ليلة قِرّة-شديدة البرد-فكلمه أبو بكر كى يسمح للعرب بوقود النار فأجابهُ لا يوقد أحد منهم نارًا إلا ألقىته فيها فشكوه إلى النبي ﷺ فقال: إنى كرهت أن آذن لهم بوقود نار فيرى عدوهم قلتهم ويعطف عليهم فحمد رأيه وأرسله على صدقات عمان فلما قبض النبي أُقبل فنزل بقرة ابن هبيرة فأكرم مشواه ولما عزم على الرحلة خلا به قرة وقال: إن العرب لا تطيب لكم نفسا بالإتاوة «الزكاة» فإن أعفيتموها من أخذ أموالها تسمع لكم وتطيع وإن أبيتم فلا تجتمع عليكم فقال له عمرو: (أكثر يارقة أتخوفنا بالعرب؟ فوالله لأوطنن عليك الخيل فى حِفْش^(١) أمك).

وأعماله فى فلسطين درجناها ملخصة فلا حاجة لإعادتها. كان شديد التطلع إلى مصر فهوّن فتحها للخليفة عمر حتى أذن له فسار بأربعة آلاف جندى ثم تبعته النجدات ففتح القرما وبلبيس وأسر بنت المقوقس فجهزها وأعادها إلى والدها فسر بذلك وصالحه ولكن هرقل رفض الصلح فأقبل المقوقس إلى عمرو وعرفهُ أن الملك كره ما فعلت وأمر الروم بقتالك ولكننى لا أخرج مما دخلت فيه وإنما سلطانى علىّ وعلىّ من أطاعنى وارقى بالقبط فإنهم أعوانك فجمع عمرو عدته وهاجم الفسطاط فامتلكه وبت قواده فشرعوا يفتحون المدن والبلدان إلى أن تم له القتح وقد تألف قلوب القبط فأعاد بطيركهم بنيامين الذى نفاه الرومان إلى منصبه ولم يقتصر عزمه على فتح مصر فقط بل جهز جيشًا واخترق الصحراء من النيل إلى البحر الأحمر ووصله إلى بركة التمساح. ولما أصاب أهل الحجاز مجاعة عام القحط والرّمادة طلب منه الخليفة زادًا فكتب إليه (أما بعد يا لبيك ثم لبيك قد بعثت إليك بعير أولها عندك وآخرها عندى والسلام).

وهو الذى أبطل تقديم عروس النيل ولقد وصف مصر فقال: (مصر تربة غبراء وشجرة خضراء طولها شهر وعرضها عشر يكتنفها جبل أغبر ورمل أعفر يخط وسطها نهر ميمون الغدوات مبارك الروحات تجرى فيه الزيادة والنقصان كجرى

(١) الحفّش: البيت الحفير القريب السقف من الأرض - والبيت الصغير من بيوت الأعراب - المعجم الوسيط.

الشمس والقمر له أوان يدرّ حلابه ويكثر عجاجه وتعظم أمواجه فتفيض على الجانيين فإذا تكامل في زيادته نكص على عقبه كاول ما بدأ في جريته وطما في رده فيخرج مُحْفَرُوهُ يحرثون بطون الأرض ويبدرون بها الحب فبينما هي لأولوة بيضاء فإذا هي عنبرة سوداء فإذا هي زمردة خضراء فإذا هي ديباجة زرقاء فتبارك الله أحسن الخالقين).

ولما صرفه عثمان عن ولاية مصر حقدما عليه وحرك لسانه فاعتزل السياسة وسكن الرملة إلى أن حدث الخلاف بين علي ومعاوية فكان من أكبر أنصار الثاني وأعظم أعوانه ومستشاره في صفين وأحد الحكمين الظافر الذي ظل يمهد لمعاوية السبل ويسهل له الصعاب إلى أن أفل نجم علي وتكشفت حدوده فأخذ طعمته مصر وتملكها (ومن شاء الزيادة فليراجع ترجمة عمرو بن العاص تأليف حسن إبراهيم حسن).

